بسم الله الرحمن الرحيم

٨٩ - سورة الفجر

مكية . وآيها تسع عشرة روى النسائى[(١)] عن جابر قال : صلى معاذ صلاة . فجاء رجل فصلى معه ، فطول . فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف . فبلغ ذلك معاذا ، فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال : يا رسول الله ! حيث أصلى معه يطول علىّ . فانصرفت وصليت فى ناحية المسجد فعلفت ناقة ، فقال رسول الله ﷺ : أفتانا يا معاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى ؟

(١) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة فى المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلْفَجْرِ)

[٢] (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[٣] (وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ)

[٤] (وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

[٥] (هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)

« وَٱلْفَجْرِ » أى الصبح كقوله تعالى[١] (وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم تعالى بآيته ، لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضّوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات ، لطلب الأرزاق. وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم . وفيه عبرة لمن تأمل « وَلَيَالٍ عَشْرٍ » هى ، على قول ابن عباس ومجاهد، عشر ذى الحجة، لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج . وفى البخارىّ[٢] عن ابن عباس مرفوعاً : ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام . يعنى عشر ذى الحجة .

وحكى ابن جرير[٣] أنه قيل عنى بها عشر المحرم . والرازىّ ، قولًا أنها العشر الأواخر من رمضان، لما فيه من ليلة القدر، ولما صح[٤] أنه صلوات الله عليه كان إذا دخل العشر الأخير

(١) [٨١ / التكوير / ١٨] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٦ ـ كتاب الصوم ، ٥٢ ـ باب ما جاء فى العمل فى أيام العشر ، حديث رقم ٧٥٧ .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثلاثين ، (طبعة الحلبى الثانية) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ٥ باب العمل فى العشر الأواخر من رمضان ، حديث رقم ١٠٢٧ ، عن عائشة .

من رمضان شدّ مئزره وأحيي ليله وأيقظ أهله . وثمة وجه آخر فى العشر . وهو أنها الليالى التى يحلو لك فيها الليل ويشتد ظلامه ويغشى الأفق سواده. وتلك خمس من أوائله وخمس من أواخره . وإن لفظة (عَشْرٍ) بمثابة قوله فى السور الآتيـــة (إِذَا يَغْشَىٰ) (إِذَا سَجَىٰ) مما يبيّن وجه العبرة ويجلّيها أتم الجلاء ، ولا بعد فى هذا المعنى. بل فيه توافق لبقية الآيات. وبالجملة فأوضح المخصصات ما عضده دليل أو أيدته قرينة أو حاكى نظائره . والله أعلم .

« وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ » يعنى الخلق والخالق . فالشفع بمعنى جميع الخلق ، للازدواج فيـــه كما فى قوله تعالى[1] (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . قال مجاهد : كل خلق الله شفع . السماء والأرض . والبر والبحر . والجن والإنس . والشمس والقمر . والكفر والإيمان . والسعادة والشقاوة . والهدى والضلالة . والليل والنهار .

(وَٱلْوَتْرِ) هو الله تعالى لأنه من أسمائه . وهو بمعنى الواحد الأحد . فأقسم الله بذاته وخلقه . وقيل : المعنى بالشفع والوتر ، جميع الموجودات من الذوات والمعانى . لأنها لا تخلو من شفع ووتر .

قال القاضى: ومن فسرها بالبروج والسيارات أو شفع الصلوات ووترها أو بيومى النحر وعرفة ، فلعله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ، مارآه أظهر دلالة على التوحيد ، أو مدخلًا فى الدين ، أو مناسبة لما قبلهما .

قال ابن جرير[2] : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر، ولم يخصص نوعاً من الشفع ولا من الوتر، دون نوع ، بخبر ولا عقل، وكل شفع ووتر ، فهو مما أقسم به . مما قال أهل التأويل أنه داخل فى قسمه هـــذا ، لعموم قسمه بذلك .

وقد قرئ (الوتر) بفتح الواو وكسرها . وهما لغتان .

(١) [٥١ / الذاريات / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

« وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ » أى إذا يمضى ، كقوله[١] (وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) والتقييد بذلك لما فى التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة . ففى الليل الراحة التى هى من أعظم النعم . وفى النهار المكاسب وغيرها . وحذف الياء للتخفيف ولتتوافق رؤوس الآى. ومن القراء من حذفها وصلا ووقفا . ومنهم من خصه بأحدهما ، كما فصل فى كتب الأداء .

« هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ » قال ابن جرير[٢] : أى هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذى حجر . وإنما عُنى بذلك : أن فى هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه ، مما هو أغلظ منه فى الأقسام .

وقال الرازىّ : المراد من الاستفهام التأكيد . كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟ والمعنى أن من كان ذا لُبّ علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية . فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه . أى على طريقة قوله تعالى[٣] (وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) وإنما أوثرت هذه الطريقة هضما للخلق ، وإيذاناً بظهور الأمر . و (الحجر) العقل . لأنه يحجر صاحبه ، أى يمنعه من ارتكاب مالا ينبغى . والمقسَم عليه محذوف . وهو (ليعذبن) كما ينبىء عنه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

[٧] (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ)

[٨] (ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » أى ألم تعلم علماً يقينيًّا كيف عذب ربك عاداً ،

(١) [٧٤ / المدثر / ٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٧٦] .

فيعذب هؤلاء أيضا ، لاشتراكهم فيما يوجبه من جحود الحق والمعاصى. و (عَادٍ) قبيلة من العرب البائدة . وتلقب بإرم أيضا . وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليه السلام . فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية. فقوله تعالى «إِرَمَ» عطف بيان لعاد «ذَاتِ ٱلْعِمَادِ» أى ذات الخيام المعمّدة ؛ لأنهم كانوا أهل عمد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلأ حيث كان . ثم يرجعون إلى منازلهم فى الأحقاف فى حضرموت . وقيل : كنى بالعماد عن العلوّ والشرف والقوة. إلا أن الأشبه ـ كما قال ابن جرير[1] ـ بظاهر التنزيل هو الأول. وهو أنهم كانوا أهل عمد سيارة . لأن المعروف فى كلام العرب من العماد ، ما عُمد به الخيام من الخشب والسوارى التى يحمل عليها البناء . ثم قال : وتأويل القرآن إنما يوجه إلى الأغلب الأشهر من معانيه ، ما وُجِدَ إلى ذلك سبيل ، دون الأنكر. « ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ » أى فى العظم والبطش والأيدى .

قال ابن كثير : كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً . ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم. فقال[2] (وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ، فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وقال تعالى[3] (فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) .

تنبيه :

قال الإمام الدرّاكة ابن خلدون فى (مقدمة) تاريخه فى سياق الأخبار الواهية للمؤرخين مامثاله : وأبعد من ذلك وأعرق فى الوهم مايتناقله المفسرون فى تفسير سورة (والفجر) فى

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٧ / الأعراف / ٦٩] . (٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

قوله تعالى (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ) فيجعلون لفظه (إِرَمَ) اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أى أساطين، وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان . هما شديد وشداد . ملكا من بعده. وهلك شديد فخلص الملك لشداد . ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لَأَبنينَّ مثلها. فبنى مدينة (إرم) فى صحارى عدن فى مدة ثلثمائة سنة . وكان عمره تسعمائة سنة . وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته . حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبرىّ والثعالبىّ والزمخشرىّ وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبدالله بن قلابة، من الصحابة ، أنه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه . وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه . فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هى (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ) وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج فى طلب إبل له . ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا ، والله ، ذاك الرجل .

قال ابن خلدون : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ فى شىء من بقاع الأرض . وصحارى عدن التى زعموا أنها بنيت فيها هى فى وسط اليمن ومازال عمرانه متعاقباً . والأدلاء تقص طرقه من كل وجه . ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخبار بين ولا من الأمم ، ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة . وبعضهم يقول إنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة ، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات . والذى حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب فى لفظة (ذات العماد) أنها صفة (إرم) وحملوا العماد على الأساطين . فتعين أن يكون بناء . ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عاد إرم) على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى أشبه

بالأقاصيص الموضوعة التى هى أقرب إلى الكذب المنقولة فى عداد المضحكات . وإلا فالعماد هى عماد الأخبية بل الخيام . وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع فى وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم . بما اشتهر من قوتهم . لأنه بناء خاص فى مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت ، كما فى قراءة ابن الزبير، على إضافة الفصيلة إلى القبيلة ، كما تقول: قريش كنانة وإلياس مضر ، وربيعة نزار. وأى ضرورة إلى هذا المحمل البعيدالذى تحملت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التى ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ؟ انتهى . وسبقه الحافظ ابن كثير فى تفسيره حيث قال: ومن زعم أن المراد بقوله (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ) مدينة إما دمشق أو إسكندرية ، ففيه نظر. فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ، إن جعل (إرم) بدلا أو عطف بيان ؟ فإنه لايتسق الكلام حينئذٍ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذى لايردّ ، لاأن المراد الإخبار عن مدينة أوإقليم

قال : وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها (إرم ذات العماد) ، مبنية بلبن الذهب والفضة الخ . فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس؛ إن صدقهم فى جميع ذلك . وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابىّ ليس يصح إسنادها . ولو صح إلى ذلك الأعرابىّ ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة فى الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتخيلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير . لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها . فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء . فيأكلونها بالباطل فى صرفها فى بخاخير وعقاقير، ونحو ذلك من الهذيانات. ويطنزون بهم. والله سبحانه وتعالى الهادى للصواب . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ)

[١٠] (وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ)

[١١] (ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ)

[١٢] (فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ)

[١٣] (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

[١٤] (إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ)

« وَثَمُودَ » وهم قوم صالح عليه السلام « ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ » أى قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً . كما فى قوله[1] (وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ) والباء ظرفية . والمجرور متعلق بـ (جابوا) أو هو حال من الفاعل أو المفعول . وقرئ بالياء وبإسقاطها . كما فى (يَسْرِ) والوادى هو وادى القرى . كانت منازلهم فيه. كما قاله ابن إسحق « وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ » أى الجنود الذين يشدون له أمره. أو هى أوتاد يشد بها من يعذّبه . أو القوى والعَدد والعُدد التى تم له بها ملكه ، ورسخ بطشه وسلطانه ، ومنه قولهم ، لمن تمكن فى أرضٍ ما : ضرب بها أوتاداً « ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ » صفة للمذكورين : عاد وثمود وفرعون . أى تجاوزوا ماوجب عليهم إلى ماحظر من الكفر بالحق والعتوّ والتمرّد والبغى فى بلادهم ، اغتراراً بالقوة وعظم السلطان « فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ » أى الضرر والإيذاء وهضم الحقوق « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » أى أنزل بهم عذابه ، وأحلّ بهم نقمته ، بما طغوا فى البلاد وأفسدوا فيها. وقد بين تعالى إهلاكهم مفصلاً

(١) [١٥ / الحجر / ٨٢] .

فى غير ما سورة وآية . و (السوط) إما مصدر (ساطه) أى خلطه كما فى قول كعب[1] :

لكنها خُلَّةٌ قد سِيطَ من دَمِهَا فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ

أريد به المفعول هنا . أى أنزل عليهم ما خلط لهم من أنواع العذاب . قيل : وبما ذكر سميت الآلة المعروفة، وهى الجلد المضفور الذى يضرب به، لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض . وإما أن يكون السوط الآلة المعروفة . استعيرت لعذاب أدون من غيره . وهو ما اختاره الزمخشرىّ حيث قال : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم ، بالقياس إلى ما أعدّ لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وقيل : هو من قبيل (لجين الماء) أى عذاباً كالسوط فى شدته ، وهو ما يقتضيه كلام الطبرىّ ، حيث زعم أن السوط مَثَل لشدة العذاب .

قال الشهاب: وأما استعارة الصبّ للعذاب فشائعة، كالإذاقة. يقال: صبّ عليه السوط، وقنّعه به وغشّاه . وهو تمثيل وتصوير لحلوله أو تتابعه عليه وتكرره . « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » أى لهؤلاء الذين قصّ نبأ هلاكهم ، ولضربائهم من الكفرة بالحق والعائثين بالفساد . و (المِرصاد) اسم مكان للذى يترقب فيه الرصد ـ جمع راصد ـ أو صيغة مبالغة . كمطعام ومطعان . فالياء تجريدية وفيه استعارة تمثيلية . شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العباد، مترقباً لها ومجازياً على نقيرها وقطميرها . بحيث لا ينجو منه أحد ـ بحال من قعد على الطريق مترصّدا لمن يسلكها ، ليأخذه فيوقع به ما يريد . ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر .

ثم أشار إلى غفلة الإنسان فى حالى غناه وفقره . ونعى عليه شأنه فيهما، بما يقرر ما تقدم من استحقاقه صبّ العذاب ، بقوله تعالى :

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بانَتْ سعادُ فقلبى اليومَ مَتْبُولُ متيَّمٌ إِثْرَها ، لم يُفْدَ ، مَكْبُولُ

سيط : خُلِطَ . الفجع : المصيبة . الولع : الكذب ، والإخلاف فى الوعد ، وتبديل خليل بآخر .

انظر شرح السكّرى ص ٨

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ)

[١٦] (وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ)

« فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ » أى بالغنى واليسار « فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ » أى فضّلنى ، لما لى عنده من الكرامة « وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ » أى ضيّقه عليه وقتّره ، فلم يكثر ماله ولم يوسع عليه « فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ » أى أذلنى بالفقر . وذلك لسوء فكره وقصور نظره فى الحالين . فإنه إنما ابتلاه بالغنى ليقوم بواجبه ويعرف حق الله فيه . وبالفقر ليظهر بمظهر العفاف ويتخلق بخلق الصبر على الكفاف . ففى كلٍّ ابتلاء وامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب . ونظير الآية ، آية[1] (وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً) وآية[2] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ، بَل لَّا يَشْعُرُونَ) وآية[3] (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ)

[١٨] (وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ)

[١٩] (وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا)

[٢٠] (وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا)

« كَلَّا » ردع عن قوليه فى حاليه . أعنى اعتقاد الإكرام فى الإعطاء ، والإهانة فى المنع ،

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥و٥٦] .
(٣) [٧٠ / المعارج / ١٩ـ٢٢] .

بل لطلب الشكر . وهو صرف النعم إلى ما خلقت له ، وإعطاء المال لذويه ، وأحقهم الأيتام وهم لا يفعلونه ، كما قال « بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ » وهو من فقد كافله ومربيه . فإن من آكدالواجبات القيام على تأديبه وكفالته، صونا له إذا أهمل من فساد طبيعته وعيثه بالضرر فى أهل جبلته . ومثله التحاضّ على مواساة البؤساء. وهؤلاء المنعى عليهم ضلالهم فى غفلة عنه، كما قال « وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » أى لا يحض بعضكم بعضاً عليه ولا يتواصى به.

قال الإمام : وإنما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالإطعام فيقول (ولم تطعموا المسكين) ليصرح لك بالبيان الجلىّ أن أفراد الأمة متكافلون . وإنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع التزام كلٍّ لما يأمر به ، وابتعاده عما ينهى عنه .

لطيفة :

قال القاشانىّ ، فى دلالة قوله تعالى (فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ) الخ : أى الإنسان يجب أن يكون فى مقام الشكر أو الصبر بحكم الإيمان، لحديث (الإيمان نصفان . نصف: صبر، ونصف شكر) لأن الله تعالى إما إن يبتليه بالنعم والرخاء ، فعليه أن يشكره باستعمال نعمته فيما ينبغى من إكرام اليتيم وإطعام المسكين وسائر مراضيه . ولا يكفر نعمته بالبطر والافتخار فيقول : إن الله أكرمنى لاستحقاق وكرامتى عنده . ويترفه فى الأكل ويحتجب بحجبة المال ويمنع المستحقين . أو بالفقر وضيق الرزق فيجب عليه أن يصبر ولا يجزع ولا يقول: إن الله أهاننى. فربما كان ذلك إكراماً له . بأن لا يشغله بالنعمة عن المنعم ، ويجعل ذلك وسيلة له فى التوجه إلى الحق والسلوك فى طريقه لعدم التعلق ، كما أن الأول ربما كان استدراجاً منه . انتهى .

« وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا » قال ابن جرير[1] : أى تأكلون الميراث أكلاً شديداً ، لا تتركون منه شيئاً . من قولهم (لممت ما على الخوان أجمع فأنا ألمه لمًّا) إذا أكلت ما عليه فأتيت على جميعه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال ابن زيد : كانوا لا يورّثون النساء ولا يورّثون الصغار ، وقرأ[1] ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ، قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أى لا تورثونهن أيضا . وقال بكر بن عبد الله : اللمّ : الاعتداء فى الميراث . يأكل ميراثه وميراث غيره « وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا » أى جمعه وكنزه ، حبًّا كثيراً شديداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾

[٢٢] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾

[٢٣] ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾

[٢٤] ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾

[٢٥] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

[٢٦] ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

« كَلَّآ » ردع لهم عن ذلك ، وإنكار لفعلهم . وما بَعْدَهُ وعيد عليه بالإخبار عن ندمهم وتحسرهم حين لا ينفعهم الندم « إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا » أى دكا بعد دك حتى عادت هباءً منثوراً .

قال الشهاب : ليس الثانى تأكيدا ، بل التكرير للدلالة على الاستيعاب . كقرأت النحو باباً باباً . وجاء القوم رجلًا رجلًا ، و(الدك) قريب من الدق ، لفظاً ومعنى « وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » قال ابن كثير : أى وجاء الرب ، تبارك وتعالى ، لفصل القضاء ، كما يشاء . والملائكة بين يديه صفوفاً صفوفاً . وسبقه ابن جرير إلى ذلك وعضده بآثار عن ابن عباس وأبى هريرة

(١) [٤ / النساء / ١٢٧] .

والضحاك فى نزوله تعالى من السماء يومئذ فى ظلل من الغمام ، والملائكة بين يديه ، وإشراق الأرض بنور ربها . ومذهب الخلف فى ذلك معروف ، من جعل الكلام على حذف مضاف ، للتهويل . أى جاء أمره وقضاؤه . أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه .

قال الزمخشرىّ : مثلت حاله فى ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم . انتهى .

وكأنَّ الخلاف بين المذهبين لفظىّ ، إذ مبنى مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد . ويعنون بالظاهر ماللخلق مما يستحيل على الخالق ، فوجب تأويله . وأما السلف فينكرون أن معنى الظاهر منها ماللخلق . بل هو مايتبادر إلى فهم المؤمن الذى يعلم أن ذاته تعالى ، كما أنها لاتشبه الذوات ، فكذلك صفاته لاتشبه الصفات . لأنها لاتكيف ولا تعلم بوجهٍ ما . فهى حقيقة النسبة إليه سبحانه ، على مايليق به . كالعلم والقدرة . لاتمثيل ولا تعطيل .

قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه : واعلم أن من المتأخرين من يقول إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به ، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . وهذا لفظ مجمل . فإن قوله (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين . مثل أن يراد بكون الله قِبلَ وجه المصلِّى ، أنه مستقر فى الحائط الذى يصلى إليه ، و(إن الله معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا ، ونحو ذلك . فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال إن مذهب السلف أن هذا غير مراد ، فقد أصاب فى المعنى ، لكن أخطأ فى إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث . فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ماقد بيناه فى غير هذا الموضع . اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار ، معذوراً فى هذا الإطلاق . فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية . انتهى .

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك فى (الرسالة المدنية) وأوضح أن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

وقال رحمه الله فى بعض فتاويه : نحن نقول بالمجاز الذى قام دليله . وبالتأويل الجارى على نهج السبيل . ولم يوجد فى شىء من كلامنا وكلام أحد منا ، أنا لانقول بالمجاز والتأويل . والله عند لسان كل قائل. ولكن ننكر من ذلك ماخالف الحق والصواب، ومافتح به الباب، إلى هدم السنة والكتاب واللحاق بمحرّفة أهل الكتاب . والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه ؛ أن القرآن مشتمل على المجاز . ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص فى هذه المسألة . وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم ، كأبى بكر بن أبى داود ، وأبى الحسن الخرزىّ ، وأبى الفضل التميمىّ ، وابن حامد، فيما أظن ، وغيرهم، إلى إنكار أن يكون فى القرآن مجاز. وإنما دعاهم إلى ذلك مارَأَوْهُ من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز. فقابلوا الضلال والفساد ، بحسم الموادّ . وخيار الأمور التوسط والاقتصاد . انتهى .

«وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍم بِجَهَنَّمَ» أى أظهرت حتى رآها الخلق وعلم الكافر أن مصيره إليها. فمجيئها متجوز به عن إظهارها. كما صرح به آية[1] (وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ) «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ» تفريطه فى الدنيا فى طاعة الله وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال « وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ » أى منفعتها. فالمراد بتذكره ندامته على تفريطه فى الصالحات من الأعمال التى تورثه نعيم الأبد ، كما فسره بقوله تعالى « يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى » أى أسلفت من الأعمال الصالحة لحياتى هذه . فاللام للتعليل . أو : قدمت وقت حياتى . فاللام بمعنى وقت . والحياة هى التى فى الدنيا « فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ » أى لا يعذب كعذاب الله، أحدٌ فى الدنيا « وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ » أى لا يوثق كوثاقه يومئذ أحد فى الدنيا. وقرئ (يُعَذَّبُ وَيُوثَقُ) على بناء المجهول .

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٩] .

قال السمين : وعذاب ووثاق فى الآية ، واقعان موقع تعذيب وإيثاق . والمعنى لا يعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الكافر . ولا يوثق أحد إيثاقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال . فالوثاق فى الآية بمعنى الإيثاق . كالعطاء بمعنى الإعطاء .

ثم أشار إلى ما يقال لمن آمن وعمل صالحاً ، فى مقابلة من تقدم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ)

[٢٨] (ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)

[٢٩] (فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى)

[٣٠] (وَٱدْخُلِى جَنَّتِى)

« يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ » أى الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن . وهى التى كان قلبها اطمأن بذكر الله وطاعته وخشيته من الاضطراب « ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ » أى وعده وثوابه « رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » أى راضية بما أوتيت ، مرضية عند ربها « فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى » أى فى زمرتهم ، وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون « وَٱدْخُلِى جَنَّتِى » أى معهم . وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة . ومن غرائب المأثور هنا ، تأويل النفس بالروح ، والرب بصاحبها . أى ارجعى إلى جسد صاحبك إيذاناً بأن الأرواح المطمئنة تردّ يوم القيامة فى الأجساد ، وأن لها مقرًّا قبل تعلقها بالبدن فى عالم الملكوت . والمسألة من الغوامض بل من الغيوب . وبمعرفة نظائر التنزيل ، يظهر بُعد هذا التأويل .